الشرق الأوسط
جريدة العرب الدولية
ASHARQ AL-AWSAT

الاربعاء ٠٣ جمادى الاولى ١٤٢٢ هـ ٢٥ يوليو ٢٠٠١ العدد ٨٢٧٥

فؤاد مطر

على مشارف الإنصاف لنا... وعلى حافة الإدانة لها

من المؤكد ان التصريحات التي ادلى بها يوم السبت قبل الماضي وزير الخارجية الاميركية كولن باول لصحيفة «واشنطن بوست» خفضت الكثير من الاحتقانات المتراكمة في الصدور العربية. وتركت هذه التصريحات انطباعاً مزدوجاً. الجانب الاول من هذا الانطباع هو أن التحذيرات والنصائح السعودية للادارة الاميركية بدأت تثمر، وأن الكلام الذي سمعه رئيس الدبلوماسية الاميركية من ولي العهد السعودي الامير عبد الله بن عبد العزيز وكذلك من الرئيس حسني مبارك والملك عبد الله الثاني، بدأ يتفاعل في نفوس اهل القرار الاميركي وبات هؤلاء يرون ان نصيحة الصديق في محلها. اما الجانب الثاني من الانطباع فهو أن الادارة الاميركية قادرة في الوقت المناسب ان تكون على شيء من التوازن، وهذا امر جيد خصوصاً اذا حدث نوع من التطوير له.

وما قاله وزير الخارجية الاميركية في تصريحاته المشار اليها ويبعث على الارتياح، كان بصيغة مخاطبة الاسرائيليين، وكان على النحو الآتي: «كيف يمكنكم الحصول على شراكة جيدة عندما تمعنون في خطاب يشير الى انكم لن تقبلوا الآخر ابداً كشريك (اي ياسر عرفات). وعندما تبدأون بتدمير مبانٍ بالجرافات لا تتوقعوا ألاَّ يرد الناس على مثل هذه الاعمال. وعندما تبدأون بإعلان نشاطات فإن هذا لا يوجد الظروف التي تجعل الطرف الآخر يبدي ردوداً أقل عنفاً وحِدَّة. إن المطلوب ليس وقف العنف ميدانياً فحسب، بل على المسؤولين في الجانبين أن يكفوا عن صب الزيت على النار...».

بالإضافة الى هذا الكلام الذي يقترب من مشارف الإنصاف للجانب الفلسطيني، استوقفنا في التصريحات نفسها كلام للوزير باول يقترب من حافة الإدانة لاسرائيل، وتمثَّل ذلك بقوله في شأن سياسة التصفيات والاغتيالات التي ينفذها الجيش الاسرائيلي: «ان الولايات التحدة لا تملك الكثير من النفوذ على اسرائيل في هذا المجال سوى ادانة مثل هذه العمليات...».

من شأن هذا الكلام لرئيس الدبلوماسية الاميركية ان يبعث بعض الآمال في النفوس، ونكاد نقول انه يثلج الصدر العربي قليلاً، كما من شأنه ان يزيل المرارة الناشئة عن الموقف السابق للوزير باول والمتمثل بقوله قبل ثلاثة اسابيع ان اريل شارون وحده هو الذي يقرر ما اذا كان العنف قد توقف في فلسطين. وهو كلام وظفه شارون على نحو ما يريد فأمعن عدواناً وتدميراً وتصفيات، وكما لو أنه زعيم «مافيا» وليس رئيس حكومة ملزمة بأصول ومواثيق واعراف. مستنداً في جرائمه هذه الى ان كولن باول بايعه واعطاه حقاً لا يتلاءم مع طبيعته. كما ان كلام الوزير الاميركي من شأنه ان يبدد من اهوال مواقف بعض رموز الدبلوماسية الاميركية ومن بينهم السفير مارتن انديك الاسترالي الصهيوني الذي سبق ان تم في عهد كلنتون تعيينه سفيراً في اسرائيل فكان اسوأ سفير للولايات المتحدة من وجهة نظرنا كعرب، بل من وجهة نظر اي مراقب محايد، وكان خير داعم للسياسة الصهيونية ولمطامعها في المنطقة. وكان مستغرباً كل الاستغراب، ان يدلي هذا السفير، الذي ولد في لندن وشب في استراليا ودرس في الجامعة العبرية في

القدس وأخذ فرصته الوظيفية الكبرى في الولايات المتحدة، وهو المفعم بولائه للصهيونية وليس للبلد الذي يمثله (اي للولايات المتحدة)، عشية مغادرته تل ابيب عائداً الى واشنطن بعد انتهاء مهمته كسفير، بتصريحات جاء فيها الآتي مخاطباً بني جلدته الاسرائيليين: «على اسرائيل ان ترغم عرفات على الإيفاء بالتزاماته وهي ربحت المعركة الآن. فقبول الفلسطينيين توصيات لجنة ميتشل يعني ببساطة ان الانتفاضة انتهت. ان ادارة بوش تشكك في قدرات عرفات ودوره في السعي الى حل دائم، واوسلو جلبت الازدهار لاسرائيل والفقر للفلسطينيين...».

وإلى ذلك سجل انديك ثلاثة آراء لا يمكن ان يكون غرضه منها هو كسب الرضى الصهيوني عليه في حين ان المطلوب منه في هذه الحال هو رضى الادارة الاميركية وذلك كي تبرر اختياره دون غيره لمنصب لا يجوز في أي حال لمن يشغله ان يتقدم الولاء للمعتقد الديني والسياسي (اي لليهودية والصهيونية) عنده على الولاء للوطنية (اي للبلد الذي يمثله هذا السفير)، وإلاّ - في حال كان ذلك غير وارد - فإن انديك كان واحداً من افراد الطابور الخامس الصهيوني في الادارة الاميركية.

والآراء الثلاثة التي نشير اليها هي:

- انه يعتبر أن الفلسطينيين خسروا بسبب الانتفاضة الشارع الاسرائيلي والجمهور الاميركي. وجوابنا على هذه النقطة هو التساؤل الآتي: وهل كان هذا الشارع وذاك الجمهور مع الفلسطينيين طوال اربعة عقود تلت نكبة ١٩٤٨ لكي نقول انهم خسروا هذين «السندين»؟ وإذا سلَّمنا جدلاً بأن هذه الخسارة حدثت بالفعل فإن المكسب الذي تحقق للفلسطينيين وللأمة من الانتفاضة كان كبيراً جداً سواء على صعيد عودة الروح الى الأمة بصيغة الاستنهاض او على صعيد تدعيم الجدار الفلسطيني بحيث لا ينهار. وهو على رغم كل ما يحدث بات جداراً كثير الصلابة وتتحطم عليه التصرفات الهوجاء للمجموعة الشارونية التي تمارس اساليب فاقت في شراستها الاساليب النازية.

- ان انديك يرى ان الاقتصاد الفلسطيني إنهار تماماً، وهذا الى حد ما صحيح نتيجة الحصار الاسرائيلي الاحمق. وهو حصار جعل مشاعر الكراهية تتعمق في النفوس الفلسطينية، أضف الى ذلك ان الخسارة لم تقتصر على الجانب الفلسطيني فقط وذلك لأن الخسائر التي الحقتها الانتفاضة بالاقتصاد الاسرائيلي كانت هي الاخرى كبيرة جداً. والفرق بين الخسارتين ان الفلسطينيين لا يجدون من يعوض لهم خسارتهم نتيجة ان المساعدات العربية تتقرر بعد مشقة، وهي بعد ان تتقرر تصل على مراحل متباطئة، في حين ان اسرائيل عندما تخسر تجد باستمرار من يتولى تعويم وضعها المنهار، ويأتي التعويم بصيغة المساعدة الفورية.

- ان انديك في اساءة متعمدة منه الى الرئيس جورج بوش الإبن او تبييضاً منه لصفحته الاسرائيلية (صفحة بوش)، والتأكيد على دعمه للكيان الصهيون، قال الآتي: «ان شارون فاجأ جميع المراقبين الذين بنوا حساباتهم على ماضيه العسكري، وإنه بتبنيه سياسة ضبط النفس انما يسلك الطريق الصحيح. وأنا معجب بكيفية تصريفه الامور على رغم الضغوطات الداخلية. انه يعي حدود اللجوء الى القوة ويولي اهمية خاصة للرأي العام العالمي. وعلى رغم بعض الخلافات في وجهات النظر بين شارون والادارة الاميركية نتيجة اصراره على تحقيق وقف تام للنار في المناطق العسكرية، لكنه يحظى بتقدير كبير في اوساط هذه الادارة. وأنا مقتنع بأن صداقة الرئيس الاميركي (جورج بوش الابن) وتعاطفه مع اسرائيل، حقيقيان بل بالفطرة. انه يذكِّرني بالرئيس الاسبق رونالد ريغان. انه كنز لإسرائيل وعليها الحذر لئلا تخسره...».

وغالب الاعتقاد ان انديك بكلامه هذا يتعمد الاساءة الى الرئيس بوش الابن. والذي يؤكد لنا ذلك ان وزير الخارجية كولن باول ادلى في اليوم التالي لصدور تصريحات انديك بتصريحاته التي اشرنا اليها في مطلع هذا المقال والتي كانت تصريحات على مشارف الانصاف للجانب الفلسطيني وللعرب عموماً وعلى حافة الادانة للممارسات الشارونية. كما ان الرئيس الاسبق جورج بوش (والد الرئيس الحالي) وطبقاً لمعلومة نشرتها في اليوم نفسه صحيفة «نيويورك تايمس»، اتصل (وكان ابنه الرئيس الى جانبه في الغرفة التي تم منها الاتصال) بولي العهد السعودي الامير عبد الله بن عبد العزيز ليقول له ان ابنه الرئيس «يضع قلبه في المكان الصحيح، وأنه بصدد عمل الشيء الصحيح». وذكرت الصحيفة نقلاً عن مسؤول رفيع المستوى في الادارة الاميركية ان ولي العهد شكا من ان هذه الادارة (ادارة بوش الابن) اقرب كثيراً الى شارون.. ولا بد أنه قال اكثر من ذلك وإلا لما كان الرئيس الاسبق الذي قاد التحالف الدولي لتحرير الكويت، اعتمد اسلوب تطييب الخاطر السعودي حاثاً الامير عبد الله على القيام بالزيارة الرسمية غير المقبولة وغير المرفوضة حتى اشعار آخر للولايات المتحدة. وإلى ذلك إن ناقل المعلومات قال للصحيفة «إن المكالمة الهاتفية كانت

دافئة وشخصية في نبرتها وكانت مصمَّمَة (من جانب بوش الوالد) بصورة تشجع الامير عبد الله على ان يرى بأن الرئيس الابن يملك تفهُّماً مماثلاً لقضايا الشرق الاوسط مثل تفهُّم والده.

ونخلص الى القول ان كلام وزير الخارجية الاميركية، شرط أن يصمد ولا يحدث بعض التراجع عنه، وقرار الادارة الاميركية يوم الثلاثاء ١٢ يونيو (حزيران) الماضي بتأجيل نقل السفارة الاميركية الى القدس ستة اشهر اخرى، هما من الخطوات التي يرتاح اليها الرأي العام العربي. لعل هذه الخطوات تشجع الادارة الاميركية على ان تكون الوسيط النزيه فترتاح ونرتاح ويطمئن الفلسطينيون الى انه بات في الامكان ان يصبح لهم وطن.

ومن باب الافتراض نقول ان الادارة الاميركية وفي ضوء الحلف الروسي ـ الصيني المتمثل بالمعاهدة التي وقعها يوم الاثنين ١٦ يوليو الجاري، وهي الاولى من نوعها منذ نصف قرن، الرئيس الصيني جيانغ زيمين والرئيس الروسي فلاديمير بوتين، باتت تخشى ان يسبقها هذا الثنائي المنافس والمقتدر الى قلوب العرب والمسلمين المتعبة من الانحياز الاميركي الاعمى للباطل الاسرائيلي. واذا وصل الثنائي الى القلوب واستقر فيها فإن المعايير ستتبدل... ولن تعود الولايات المتحدة هي وحدها سيدة العالم بلا منافس.